المكوّن السوسيوثقافي لإنسان الصحراء
مقاربة مؤرّخ في نصوص الرحلة

أ/ طاهر بن علي
قسم التاريخ
جامعة غرداية- الجزائر

توطئة:

ما زالت الدراسات التاريخية تتفتّح على العلوم من أجل أن تفسح مجال البحث فيها، ذلك أنّ المفاهيم في تحوّل دائم، نتيجة لمستحدثات المناهج التي تصرّ الابستمولوجيا على تطويرها، من أجل الوصول إلى جواهر التركيب المعرفي، الذي ينشده العقل الإنساني.

وللوصول إلى ذلك توسّعت في نصوص مصادرها، لتمدّ البحث إلى عمق الحياة الإنسانية، حيث أنّ النصوص المعتبرة وثائق في المنهج التاريخي تنوّعت بتنوّع البحث ومجاله. غير أنّ النصوص تختلف من حيث المقصد الذي كتبت له، فليس كلّ ما كتب كان من باب التاريخ.

وكانت الرحلة بموفور نصوصها من عدّة المؤرّخ، الذي اعتمدها نصّا على كلّ ما سكتت عنه كتب التاريخ، التي تسطّحت على الفعل السياسي، والعسكري، والعمراني، ولم تحمل من مفردات الحياة اليومية إلّا النزر القليل.

غير أنّ هذه النصوص لا تكون صحيحة في مجملها، ولا تكون جاهزة لتتحوّل إلى وثيقة، إلاّ إذا كانت المقاربة فيها بمناهج خاصّة، تحقّق منها المقصود التاريخي. لذلك جاءت المقاربة محاولة لمعالجة إشكال القيمة التاريخية لهذه النصوص، مجيبة على التساؤل: كيف نحرّر الحدث من نصوص الرحلة؟، وكيف نرسمه في بناء المعرفة التاريخية؟.

خصوصية نص الرحلة:

يقتضي سياق النصّ في هذه المقاربة أن يحقّق توجّه العنوان الدالّ على نسقه، وأن يحتوي بداية على تحديد مجال البحث وخصوصيته المعرفية، ثمّ بعث الإشكالات المتكوّنة من طبيعة القراءة والمقاربة، وبهما يصبح النصّ متوازنا منهجيا، ومعرفيا، بين الطرح والمجال، وبين العنوان والمقال.

تباشر نصوص الرحلة الحدث من خلال أبعاد جغرافية[1]، وتمدّ الأفق إلى تسطيح المكان ليمتدّ عليه البحث وراء الكنه التاريخي المشكّل للمعرفة الماضوية المؤسّسة، لكلّ الاتّجاهات المعرفية في الدراسات الاجتماعية، والإنسانية.

وتمثّل الجغرافيا مجال المغامرة في هذه النصوص التي تحوّل أبعاده إلى مادّة البحث التاريخي[2]، ليصير المكان وعاء للحدث تماما مثل الزمن، ويتماهى المكان والزمان في معنى أنطولوجي يمنح الرؤى معرفة بالفعل الإنساني الذي يمثّل غاية الدراسات الاجتماعية والإنسانية، وينشأ من خلاله المكوّن الأنثروبولوجي الذي يبعث الدراسات في حياة الإنسان بعثا استشكاليا يزعج التأمّل إلى البحث، ويدفع الدراسات إلى الغور في كلّ منشّإ من فعل، وحركة، وفكر[3].

وبالمعنى التاريخي الزمني حيث يقتضي المنهج أن تكون الدراسات وفق جدلية بين وعائية الظرفية التي تحتوي الحركة، ومحتوى الحركية التي تقتضي الظرف، تبرز ازدواجية اللحظة- الفعل التي تنبثق عنها الإشكالات والمسائلات التي تؤسّس لمنطلقات البحث والنظر، ثمّ يساق هذا الكمّ الإشكالي إلى تفصيلات المناهج، فتنشأ المعرفة وفق خصوصية الميدان، وطبيعة الاهتمام.

وبهذا تكوّن الرحلة بنصوصها قيمة مصدرية وثائقية مهمّة[4] عن جزئيات اليومي[5] الدقيقة المنفعلة بتيّارات الحياة العامّة، حيث التفرّد والتشاكل سمتان لخصوصية المفرد والجمع في ملمح الوجود البشري في صورته الثقافية والاجتماعية، وحيث التاريخ صورة التحويل لمفردات الثقافة إلى بنية اجتماعية، وصياغة التكتّل الجماعي إلى قيمة ثقافية لتصير التعبير عن الالتحام الإنشائي بين الحيّز المكاني والحشد البشري في قيمة زمنية معيّنة.

وتمتدّ جزئيات اليومي في البحث المتعمّق لتنتظم كلّية متناسقة في المنظور المنهجي الذي يؤلّف الظواهر لدراستها، لنتمكّن من فحص القيم مادّة اجتماعية مترابطة ومشكّلة لتلاحمية نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية المؤذنة بميلاده، والمؤطّرة لوجوده المتفاعل مع المحيط بكلّ ظواهره ومتغيّراته.

إنّ الوجود علاقات، والمجتمع جزء من هذا الوجود، والدراسات المنشغلة على مظاهره دراسات في هذه العلاقات، ومن هذا القبيل كانت نصوص الرحلة المتعمّقة في الجغرافيا كشوفات مخبرية للعلاقات في إطار الأيونة التي فرضتها الظروف الجغرافية والمناخية على مواقع إنسان الصحراء.

ولئن كانت الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية المعاصرة قد انتصرت على توجّهاتها المنهجية بما أحدثت من بؤر أنتجت في كلّ منها تخصّصا قائما بذاته مكمّلا لغيره، حتّى تتنوّع الدراسة ولا تتفكّك. إلاّ أنّها لم تستطع أن تنتصر بتفلّت من مخبريات التاريخ ونصوصه التي شكّلت لها عيّنات دراسية ليس فقط لمعاينة دراسية محلّية وآنية، بل منحتها عيّنات التطوّر والتشكّل الذي يصوّر التاريخ حيثياته أحداثا ووقائع يستند إليها الباحثون في كلّ الدراسات الاجتماعية والإنسانية.

والرحلة في هذا الفنّ أساسية إذ بها قضى التاريخ على إشكالية المدّ الزمكاني في الدراسات، والتمسها مادّة معاينة ومجاورة لطبيعة المجتمعات المتكوّنة في غياهب الجغرافيا وكهوف الزمن. ومنها اقتبس التاريخ نظرته في العلاقات الاجتماعية[6] المنسوجة بثقافة المجتمع، واكتنه العمق الاجتماعي الكامن وراء العادي[7] الذي تغطّيه ظلال المألوف، ليحدث مظاهر المقارنة التي تبنى عليها دراساته، ودراسات غيره من المناهج.

ومن تركيبية هذه الجزئيات ببنائية أنثروبولوجية، وتحليلية سوسيولوجية، تتمحور صور الحياة العامّة لتشكّل المنظور الدراسي لحركة اقتصادها[8]، ويتّجه التاريخ الكمّي بإحداثيات الإحصاء ودلالات الأرقام إلى بناء معرفة تاريخية واقتصادية على مستوى القيم الزمكانية المؤثّرة على التوجّه الاجتماعي والثقافي لمجموعات مختلفة، وبيان صور منتوجها المدلّل على درجات النمو والتطوّر لديها بمقياسية زمنية.

ذلك أنّ الرحلة تجربة عميقة ذات اتّصال ثلاثي الأبعاد[9]، الطبيعي عن طريق الجغرافيا، حيث تتأسّس قيم التراب والكون لتشكّل عالم الأشياء، والبشري عن طريق الجموع، حيث تتأسّس قيم الإنسان لتشكّل عالم الأشخاص، والاجتماعي عن طريق الحياة، حيث تتأسّس قيم الثقافة لتشكّل عالم الأفكار. ومن خلال محمولها يصير الإنسان موضوع دراسة شاملة بحيثيات متعدّدة، بعدما كان أداة لهذه الدراسة[10].

إنّها السرديات التي يتعلّق بزمنها كلّ مدهش يأتي من وراء حجاب الزمن، ورائع[11] يتبدّى من أفق الجغرافيا، ونادر لا تحمله السرديات والمخاييل التقليدية، وغريب[12] يغاير المعهود المباشر في تمثّلات الدراسات الحديثة.

وتحمل في كثير من نصوصها، مستحدثات المعارف[13] التي لم تتناولها المصادر الأخرى، ولم تقف عليها الدراسات في المتون والمظانّ المعهودة، كما تنبئ عن أوّليات الأصول التاريخية لكثير من الإثنيات في حيّزها الجغرافي[14] الممتدّ وراء المجال الزمكاني في كتابات المؤرّخين الكلاسيكيين، حيث الخبر والرواية ممّا غطّت الجغرافيا[15] ولم تلامس الخبرة[16].

وبمحاورة الجغرافيا تستدعي الرحلة خصوصيات الأمم والشعوب[17] إلى منصوص يحقّق الوعي بالحدث بمعنى كوني شامل، كما تعانق بمنصوصها الخصوصيات الإثنية ليتحقّق الوعي بالحدث بمعنى أنطولوجي كينوني، فيتلبّس محمولها بالحضور الزمني الكامل المتعمّق بالوجود الإنساني، و"يضمّ الوثائق العظيمة الشأن في تاريخ الإنسانية"[18].

وبكلّ ما تحمل مضمونا، وبها متضمّنا؛ إذ تصبح بذاتها موضوعا للدراسات "حيث تطلّ على كلّ جانب من جوانب المعرفة"[19] يحدث المؤرّخ[20] المقارنات من حيث التغيّر إشكال لمقاربة سوسيولوجية، ومن حيث التماثل ملمح لتساؤليةأنثروبولوجية، ويمنح للمهتمّين بمسألة الوجود الإنساني كثيرا من خام الأحداث لتتمثّلها الرؤى المنهجية في الدراسات. وتصبح نصّا صحيح المستند[21] للتمثّلات الثقافية[22] من خلال الجغرافيا.

وتصير في متكوّنها النهائي متشكّل التاريخ بمبدإ التحوّل الذي يفرضه الزمن، والاستخدام[23] الذي يفرضه المنهج، وهكذا يمتزج النص بالحدث[24] ليصبح قيمة نصّية جديدة، حتّى على المستوى السيكولوجي[25]. كما يصبح النصّ جزءا من تمثّلات أنطولوجية للأنا[26]، وللمغاير الثقافي[27]، بقيم المنطلق الجغرافي.

وهكذا يتفتّق النصّ على كتلة ظاهرتية تستدعي المناهج للتفكيك والتحليل، لتواجه الرؤى بالثابت والمتحوّل من خلال الظواهر المنشأة وجودا بامتداد الحياة ثقافة على فواصل زمنية، وبعمق الزمن قيمة في جزئيات ثقافية.

"تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" أنموذج الرحلة- الإشكال:

تهيّأت رحلة ابن بطّوطة المسمّاة " تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" بنائية معرفية دالّة على الاتّجاه المنهجي المتناول للرحلة نصّا تاريخيا أساسيا لملامح حياة تحفّظت بجغرافيتها عن التماس مع نصوص التاريخ العام. وانكفأت على سرديات ثقافية متعلّقة بسوسيولوجيا متفاعلة داخليا تطّرد بالحركة محاولة التاريخ بمعنى أنطولوجي صرف، إذ المعنى الوجودي لكينونتها مكوّن ثقافي يصنع صورة الحياة الاجتماعية المتفاعلة مع الزمن قيمة لحيّز يختزل الرؤى بكلّ أبعادها، في الماضي لتحدّد اتّجاه التاريخ، وفي المستقبل لتحدّد المصير، وفي الحاضر لتحدّد الوجود، فيصير بذلك الحيّز المعنى الكلّي للوجود البشري، ويتماهى الإنسان الفاعل مع المكان المتفاعل، لينشأ التاريخ منغلقا في جغرافية تتبدّى صورة سوسيوثقافية تمتلك تفسيرات حياتها رؤى يمتزج فيها اليومي بالتاريخي، والزمني بالميتافيزيقي، والإنسان بالحيّز.

جدلية الزمان والمكان التي تؤسّس للرؤى السوسيولوجيةوالأنثروبولوجية على محورية الثابت والمتحوّل في الحياة الإنسانية بين أبعاد القبليات المؤثّرة والبعديات المتأثّرة، تكاد تختفي في منظر هذه الحياة، حيث الزمان تراوح في فواصله المتقاطعة مع رتابة الحياة، التي تنبثق دوما من تأثير الموروث الذي يمثّل الحاضر المشكّل للوجود بتأكيدات تراتبية المكوّن السوسيوثقافي المهيمنة على الكينونة.

ومن العنوان الذي ترجمت به الرحلة في بنائيتها المعرفية يتكوّن اللحاظ في سردياتها حيث المحمول فيها ممّا لم تلامس حكايات الخبر في كتب التاريخ، والمنصوص ممّا لم تبرز إليه الوثائق والروايات في مدوّنات الأخبار، وجماع ذلك كلّه غناء نصّ يصعب الإلمام بمحتواه لكثرة معلوماته[28]، ونفاسة شهادته[29].

وبثلاثية: التحفة والغرائب والعجائب، اشتمل الملمح الابستمولوجي في الرحلة على عنصر التحديد المعرفي المحمول فيها، ليس من حيث كونه ممّا لم يؤلف تركيبه في منصوص خبري، ولكن من حيث كونه متركّب خبري في منصوص جديد مغاير لمعهود السرديات الحاصلة في أنواع المدوّن والمروي.

هذا الملمح ليس من قبيل ما تنهد إليه الدراسات التي تتعاطى مع منصوص الرحلة بحذر الخوف من عدم القدرة على تركيب المعرفة من نصوصها على سبيل من المناهج المعاصرة، فتجنح إلى تأكيد تحفّظاتها على محمولها لتقرّر "أنّ «رحلة ابن بطّوطة» غنية بالمعلومات الجغرافية والانثروبولوجية والتاريخية، بقدر ما هي مزدحمة بالحكايات الخرافية والمبالغات الخيالية، وأنّها تحتاج إلى فحص صبور لاستخلاص معلوماتها القيّمة من بين ركام حكاياتها المهلهلة"[30]. وإنّما من حيث أنّها الرحلة- الإشكال، وأنّ المنظور المعرفي منها هو التساؤل[31]المترتّب على قراءة منصوصها.

ولا يمكن اعتبار منصوصها معرفة واقعية تحمل القيمة التكوينية في نفسها، ولكن باعتبار أنّها متضمّن الإشكال الحاصل منها، ومتضمّن الإمكان الحاصل فيها، أي أنّ كلّ الصور الثقافية والانثروبولوجية التي تحتويها الرحلة تفرز إشكالا منهجيا حول قيمة المعرفة المتركّبة منها، كما تفسح المجال لاعتماد هذه الصور بتوجّه إمكان وقوعها، ذلك أنّ رواية خبرها تؤكّد احتمال تاريخيتها، وما احتمل أن يكون تاريخا احتمل كذلك أن يكون معطى واقعيا للتشكّلات السوسيوثقافية المحدثة في حركة المجتمع، وهو البعد الذي تحاوله الانثروبولوجيا مستقلّة عن السوسيولوجيا.

ونقدّر ما ذهبت إليه بعض الدراسات من أنّ رحلة ابن بطّوطة حملت كثيرا من الحكايات التي كانت سببا في إهمال الكثير لمضمونها، حيث عدّت في القصص الخيالي الذي فتح باب الشكّ[32] على حقيقة الجغرافيا التي زارها ابن بطّوطة[33]، وكانت سببا في عدم الاعتناء بالرحلة نصّا تاريخيا على مجتمعات لم نتحسّسها برواية الحدث منها، ذلك أنّ مدّ تاريخها كان من ممسكات الجغرافيا.

كما نقدّر ما ذهبت إليه دراسات أخرى بيّنت بالأدلّة صحّة المعلومات التي أوردها ابن بطّوطة ودقّته في نقلها من حيّزها، وقد أكّدتها الحفريات الحديثة من خلال المكتشف من الوثائق المادّية التي لا يرقى إليها الشكّ في إثبات الحدث مثل المسكوكات ونحوها.[34]

ويتأكّد عندنا أنّ كلّ ما حملت الرحلات هو منصوص مشكوك فيه باعتبار النقد الحاصل في علم التوثيق، غير أنّها صورة للوثيقة المتفرّدة بالخبر التي تقوم مقام القرينة في بنائية ظنّية يستصحبها الدارس ببعد الإمكان وقوّة الاحتمال، ما لم تقم الدلالة على السقم فيها وبطلانها.

ورحلة ابن بطّوطة تظلّ نصّا قائما في المعطى التكويني للمعرفة سواء صحّ الخبر فيه وطابق الواقع، أم ظلّ تحت طائلة الشكّ يستدعي الفحص والنقد، ذلك أنّ المركّب العقلي والتاريخي للمعرفة، والحقيقة، ثمّ الدلالة الحاصلة بينهما، يمنح له قوّة الاعتبار المنهجي الذي تؤكّده التوجّهات الابستمولوجية في الدراسات الحديثة التي تتبنّى المعرفة تأسيسا منهجيا في أكثر مساحات البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية.[35]

من التوجّه العام لرحلة ابن بطّوطة التي تتمثّل الغريب والعجيب لتحدث التحفة في منصوصها، كانت بنائيتنا للإشكالات القائمة في مناهجنا، من سرديات ونصوص الرحلات، حول المكوّن السوسيوثقافي لإنسان الصحراء، وذلك بالبعد السردي في الرحلة الذي يحيل على البعد الزمكاني للظاهرة، والبعد المكاني لخصوصية الصحراء المتحفّظة بالبيئة والمناخ على التماس مع المقاربات التاريخية، فتكون ظاهرتها في أبعاد مغايرة لها حيثياتها التي تنهج لدينا سبلا للبحث، وتنشئ عندنا طرقا لاستدلال.

ورحلة ابن بطّوطة من خلال منظورنا الانثروبولوجي هي استدعاء للظواهر السوسيوثقافية التي طبعت تاريخ المناطق التي زارها في عصره، فبيّنت الراهن الذي يحمل الموروث، كما ألمحت للموروث الذي يصنع الراهن، ثمّ ترجمت كلّ ذلك إلى مرويات حقّقت التواصل الثقافي بين المجتمعات وتاريخها من جهة، وبين تلك المجتمعات والمجتمع الإسلامي المغربي من جهة أخرى. وكانت "رابطة ثقافية تصوّر جوانب شتّى من النشاط الفكري والسياسي في العالم

من خلال مرئيات هذا السائح المغربي الذي كان لا يألو جهدا في ذكر مختلف مشاهداته وعرضها بدقّة كاملة"[36].

السوسيوثقافي في حياة إنسان الصحراء من خلال منصوص ابن بطّوطة :

في البنائية المعرفية لرحلة ابن بطّوطة بمقاربة ابستمولوجية؛ حيث نكوّن منظورا معرفيا لمحمولها بمراعاة السياق السردي فيها، ومطابقته تاريخيا بسياقها الزمني، نتبيّن أهمّية النصوص التي نباشرها معطى إشكاليا لما نصمد له من اختبار منهجي، ومعرفي لنصوص الرحلة في التحليل السوسيولوجي والأنثروبولوجي لظواهر لم تصلنا عن طريق الخبر المؤكّد بالتواتر، ولا عن طريق الوثائق الرسمية المختومة. ولكن طرأت في المعطى الخبري من خلال سياحة زمنية، اتّخذت الجغرافيا مجالا للتحرّك، لبيان الاختلاف الزمني الذي يفسّره التاريخ.

لقد كانت نصوص الرحلة عن السودان في آخر المدوّن، والظاهر أنّه في آخر زمن الرحلة، والملمح في هذا أنّ هذه النصوص جاءت بعد نضج الرؤية البطّوطية للرحلة، وليس أوّل الأمر كآخره، خبرة وممارسة. ثمّ إنّ رحلة ابن بطّوطة إلى الصحراء كانت بعد تجربتين اثنتين، الأولى تجربة الرحلة في حدّ ذاتها، أي ما حصل له من معارف ومناهج وتبصّر بدقائق الأمور من الرحلات التي سبقتها، والثانية من تجربة النقد الفاحص الذي تعرّضت له مروياته التي طالها الشكّ منذ البداية وقبل أن يشدّ رحاله إلى الصحراء باتّجاه السودان، أي لمّا حلّ بالأندلس[37]، وفيها من أدبيات النقد ما لا يوجد في صقع آخر، حيث الموروث العلمي والفقهي القائم على الدليل والقرينة، هو سيّد الموقف. ثمّ إنّ مرحلة الفتن الطويلة التي اعترتها كانت قد كوّنت لدى الأندلسيين روح النقد القائم على الشكّ المنهجي.

هاتان التجربتان تجعلان المعطى البطّوطي قائما في الاستشكال الذي نلتقطه ظاهرة لإنسان الصحراء من أجل الدراسة والتحليل، ونكوّن عليه احتمالية التوجّه الدراسي المنهجي لتأسيس منظور سوسيوانثروبولوجي للزمني المؤطّر بالجغرافيا، والمحدّد بالحيّز.

وإلى هاتين التجربتين يضاف عمق اليقظة الابستمولوجية في التكوين المعرفي لابن بطّوطة الذي حرص على تتبّع تغاير الزمني بتغيير الجغرافيا، فكانت المذاهب في الرحلة مختلفة عن المآيب، واختلفت معها مكوّنات الصور المروية عن الظواهر التي صادفته أو تصدّى لها، وقد أكّد على ذلك بقوله: "ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك"[38]. وأضفى على كلّ ذلك ملكة الاعتناء الكبير بتحصيل المعلومة من مصادرها[39].

حمل النص حول السودان منذ أن سلك طريق الرحلة إليه كثيرا من المشاهد الطبيعية والبشرية، تماهت كلّها في العرض البطّوطي، الذي يقدّم المروي حالة من السرد الكوني لظاهرة تاريخية مستجمعة في لحظة المشاهدة، التي تحوّلت إلى شهادة.

هذا التحوّل في البناء السيكولوجي للظاهرة من حركيتها في الزمان إلى ثباتها في السرد، هو المعنى التاريخي في الرواية، ومن خلاله تستدعى الرؤى للتحليل والتفسير لتصيّر مكوّنات الظاهرة إشكالات محفّزة للمناهج على محاولتها، ومداولتها، لتتركّب منها معرفة متخصّصة.

التفسير الميتافيزيقي في فكر إنسان الصحراء:

قال ابن بطّوطة: "ثمّ وصلنا إلى تاسرهلا، وهي أحساء ماء تنزل القوافل عليها. ويقيمون ثلاثة أيّام فيستريحون، ويصلحون أسقيتهم ويملؤونها بالماء، ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح، ومن هنالك يبعث التكشيف. والتكشيف اسم لكلّ رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة، فيتقدّم إلى ايوالاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائم بالماء مسيرة أربع. ومن لم يكن له صاحب بايوالاتن، كتب إلى من شهر بالفضل من التجّار بها فيشاركه في ذلك. وربّما هلك التكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهل ايوالاتن بالقافلة، فيهلك أهلها أو الكثير منهم. وتلك الصحراء كثيرة الشياطين، فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته، حتّى يضلّ عن قصده فيهلك، إذ لا طريق يظهر بها ولا اثر، إنّما هي رمال تسفيها الريح فترى جبالا من الرمل في مكان، ثمّ تراها قد انتقلت إلى سواه. والدليل هناك من كثر تردّده وكان له قلب ذكيّ"[40].

هذا النصّ البطّوطي يحمل قيما معرفية كثيرة مختزلة في الصور المرسومة بلفظ السرد، وكثير منها يحدّد بالعلاقات بين القيم التي تنتج الفعل على هيئة معيّنة. ففيه صورة الحاضرة التي تمثّل مرحلة انتقالية بين مكانين وزمانين متعلّقين بطبيعة السير، والأصل فيها وفرة الماء والاستراحة، وليس الاستقرار.

وفيه صورة العلاقة بقيمة الزمن المحسوب في الرحلة، والمتعلّق كذلك بطبيعة الجغرافيا التي يرحلون فيها. هذه الجغرافيا فرضت تشكيلا حركيا مميّزا، لا يكون في مسالك أخرى، حيث خياطة التلاليس التي تضفي لونا على هيئة الظاعنين، واختيارهم الآلة والأداة.

وفيه صورة التسيير الإداري المتّبع لدى إنسان الصحراء، حيث نظام التكشيف؛ وهو منظومة من العلاقات بين الظاعنين، والتجّار، وأهل الحواضر. كلّ يؤسّس فيه دوره الذي

يكوّن شبكة العلاقات الاجتماعية في تلك الجغرافيا، وعلى أساسها تقوم حركة المجتمع في اجتماعه، واقتصاده.

وكلّ هذه الصور هي تحقيق المناط في منهج علم الاجتماع وما آل إليه من دقيق التخصّص في العلاقة بين مجموع الناس فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين محالّ الفعل من الزمان والمكان من جهة أخرى. والبحث في جزئيات الصيغ الفعلية، والأبنية الحركية عند هؤلاء هو من صميم التوجّه السوسيولوجي في تحليل الظواهر ودراستها.

وهاهنا تبعث الإشكالات في هذا النصّ من قبيل صحيح المنقول، ثمّ من دقّة ما نقل حركيّا وزمنيّا، ليحدّد صورة التفاعل مع مفردات الزمان والمكان بصيغ المستوى الذهني والحركي التي تؤطّر اجتماع الناس، وتنهج توجّههم في مسلكيات الحياة، صناعة للتاريخ، وإنشاء للحضارة.

قيمة الزمان أساس الفواصل في الحركة، وتحديدها رصد قيمي مواز للجغرافيا، فالحركة والمكان والزمان صورة التماهي لدى إنسان الصحراء، وقوّة الفكر المحرّكة للآلة والموجّهة للحركة تحاول المقايسة الزمكانية التي تكوّن لديها مجموع المعادلات التي تنتظم الحساب الاجتماعي المبني على صفة الحركة المنتجة للفعل إيجابا وسلبا. وعلى هذا يقوم الاتّجاه الانثروبولوجي في تناول العلاقة بين القيم البعدية في محيط إنسان الصحراء وبين تفكيره، ثمّ حركته، إذ كلّ فكر هو أساس الحركة.

بهذا الاتّجاه الانثروبولوجي نتمثّل ظاهرة الضياع في الصحراء التي يفسّرها الإنسان هناك تفسيرا ميتافيزيقيا. والنصّ لم يسردها من باب مشاهدات ابن بطّوطة، ولكن جاءت على سبيل الحكاية والخبر المنقول عن أهل المنطقة، الذين نحسب أنّهم نقلوا تفسيراتهم إلى موقع الحكاية، فحلّت محلّ الخبر عندهم. ونحسب أنّها من الموروث الثقافي الذي يحمل في المجتمعات البدائية أو شبه بدائية قداسة المعتقد.

إنّ المكوّن السوسيوثقافي هو منظوم الحياة بإحداثيات الزمان والمكان والسيكولوجي بمعناه العام، حيث هو حركة النفس المهيمنة على الشعور والإدراك، وحتّى التمثّلات للمحيط بمعيارية المعنى الوجودي الفردي أو الوجودي الجمعي. لذلك يكون المكوّن السوسيوثقافي معادلة المعطى لتفهّم الحياة التي ينهد علم الاجتماع وعلم الانثروبولوجيا إلى تكوين معرفة بها.

والحياة معنى مشترك للعائش والمعيش(Le vivant et le vécu)، أو هو الصورة المزدوجة لحركة الفعل والانفعال بالمعنى الحركي الزمني، وليس الحركي الميكانيكي، أو بكلّ

المعنى الأنطولوجي من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي، أي أنّ الحياة هي "صورة الحي وقدرته"[41] على التمثّلات الوجودية، وإنشائه للحركة النفسية المحدثة لتوتّر الاستجابة.

والقدرة إحاطة بفعل حركي، أو بفعل ذهني يستوعب الظاهرة بملكة الإدراك، ويمنحها التفسيرات التي تتناغم مع توجّهات حياته على نسق الموروث، أو على صفة الإبداع. وكلّما عجز الإنسان على هذا الاستيعاب، دفع الظاهرة إلى التفسير الميتافيزيقي، وأحدث لها في محيطة صورة الذهول والدهشة، ليمنح سلبيا عجزه صورة الاستجابة الإيجابية.

وبين الظاهرة وتفسيرها، والقدرة على تمثّلها، يقوم المكوّن السوسيوثقافي عيّنة لدراسة إكلينيكية للنفسي المتحوّل اجتماعيا، وللاجتماعي المتمثّل نفسيا، وتحدث الانثروبولوجيا المقاربة التي ينتظرها المؤرّخ ليضع الحادثة في نصابها من التفهّم والتعقّل.

وليس التفسير الميتافيزيقي سوى مرحلة نفسية تهمّ بها شخصية الإنسان الوجودية فتصيب المعنى الغيبي الكامن وراء كثير من المعتقدات الدينية القائمة بالأدلّة العقلية والنقلية، وتجنح في بعضها إلى سحب حال هذه المعتقدات على كلّ الظواهر التي لا تجد لها تفسيرا، ولا يكون هذا السحب للدليل ومقايسته، بل يكون فقط لحال المغايرة الوجودية، أي إضفاء صورة وجودية غير وجودية الأشياء المعاشة والمعايشة.

بهذا الاعتبار كانت تفسيرات الإنسان لضياع الناس في الصحراء، حيث يفسّر عجز الإنسان أمام ظاهرة طبيعية بيئية أفرزتها الجغرافيا التي يتناول الحياة فيها، بالخوارق التي لا ترتبط بملكوت الإنسان الذي يقتضي منه المضاء فيه بالفعل والصنعة، ولكن مرتبطة بملكوت مغاير، له خاصّية الميتافيزيقا التي لا تحاولها الوجودية البشرية.

ولكون الشياطين صورة للعدائية السرمدية للإنسان- وهو واقع لا مراء فيه- ألقيت التفسيرات للظواهر على حركته التي مقصدها الضرر بالإنسان وإفساد حياته، وحلّ مفهوم جديد لعداوة الشياطين محلّ الوسوسة المفسدة للعقائد والأخلاق، وصار عجز الإنسان على احتواء ظاهرة العرق وتحوّل الكثبان الرملية من مكان إلى آخر بسبب تلاعب الشياطين بالإنسان منفردا، إذ لا سبيل للشياطين إلى الجماعة الممتنعة بكثرتها.

إنّ هذه التفسيرات تمنحنا تركيب الإشكالات للوصول إلى تحليل الثقافة التي تهيمن على حركة الإنسان. والإنسان في جماع التعريفات الانثروبولوجية والاجتماعية هو مبدع الثقافة. والثقافة حسب الأستاذ مالك بن نبي هي تفاعل العوالم الثلاثة من إنسان وأشياء وأفكار، وهي الصورة النفسية والذهنية للحضارة قبل أن تتحوّل إلى منتوج مادّي.

وعلى هذا الأساس تكون حالة الإنسان في مستوى الحضارة، أي أنّ الحضارة ترجمة للمكوّن السوسيوثقافي للإنسان الذي يبدؤه بحركة النفس، ويمضي فيه إلى تمثّلات الوجود والكون. ومن خلال تحليل ذلك لمعرفة كنه الأشياء في حياة الإنسان وكيف تتحوّل الظواهر المادّية إلى ثقافة، نتبيّن التطوّر الذي تنشده الدراسات الاجتماعية والتاريخية للتنظير.

الظواهر الاجتماعية من خلال الأسرة عند إنسان الصحراء:

يتوغّل النصّ البطّوطي ليحمل كلّ الصور التي تجمعها ثلاثية: التحفة، والغريب، والعجيب. فكلّ ما وقعت عليه العين أو الأذن ودخل تحت هذا المعنى كان محلّه التسجيل، ثمّ إنّ كلّ ما وقع في النفس حاملا المعنى ذاته كان محلّه التسجيل كذلك، حتّى كأنّ الرحلة صيد غير المعهود بمقايسة، وغير مقايسة.[42]

فما كان من غير مقايسة مثل النصّ السابق فقد احتمل النفسي، والثقافي التمثّلي، وكان مدخلا لتحليل المكوّن السوسيوثقافي في مقوّمه الأساسي المتمثّل في الموروث الثقافي الذي يجنح إلى التفسير الميتافيزيقي للظواهر مستصحبا بعض المعاني الدينية الثابتة.

وما كان بمقايسة فإنّه احتمل النفسي والاجتماعي باستحضار المغايرة مع الدهشة من تكوينه السوسيوثقافي في مجتمع له خصوصيته الدينية، التي لها هيمنتها على التصوّر العام للمحيطيات[43]، وخاصّة الأسرة لما لها من قدسية العلاقة بالدين والشرف.

جاء في النصّ البطّوطي:"...ولنسائها الجمال الفائق، وهنّ أعظم شأنا من الرجال. وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب. فأمّا رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله. ولا يرث الرجل إلاّ أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلاّ عند كفّار المليبار من الهنود. وأمّا هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلّم الفقه وحفظ القرآن. وأمّا نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن، مع مواظبتهنّ على الصلوات...والنساء هنالك يكون لهنّ الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات. ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك."[44].

العائلة مقوّم أساسي في السوسيوثقافي، وعليه تبنى التحليلات، إذ منه تكون التأثيرات الكبيرة، وفيه تتقاطع المقوّمات الأخرى، ومنها تتكوّن الثقافة المهيمنة على سلوكيات الفرد في تفاعلاته مع مفردات الحياة. لذلك كانت الملامح التي حملها نصّ الرحلة سواء رحلة ابن

بطّوطة أو غيره[45]، أظهرت نوع المجتمع الذي نحاوله تاريخا، وثقافة، واجتماعا، وأعطت للتحليل مساحة عمق الاستدلال والتفسير.

ومحمول النصّ خبر يبرز قوّة مقوّم العائلة في هذه المجتمعات، حيث له الهيمنة على تحديد نوع العلاقة المكوّنة في نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية، ومن خلالها قيم الثقافة التي تؤطّر المجتمع.

ويتساءل محمول النصّ عن موقعية البعد الديني في تكوين صورة الثقافة، ويطرح الإشكال الضمني كيف لا يؤثّر المعتقد في سلوكيات الأفراد، وكيف تكون للعائلة قوّة التوجه في حركة الثقافة النفسية والاجتماعية. وبذلك يفتح محمول النصّ مقوّم العائلة على تحليل موقعيته من المكوّن السوسيوثقافي ليدفع التنظير إلى تبنّي قيم سوسيوتاريخية في معادلات البناء المعرفي.

ويقيم محمول النصّ إشكالا صميما في المكوّن السوسيوثقافي حينما يدفع تراتبية التديّن اليومية ومستلزماتها، و تراكمية التعلّم ومتطلّباتها إلى تناظرية جدلية قائمة في النفس والعقل بمبدإ الاستنكار الذي يتحمّله السرد قيمة معرفية خبرية يحتويها التاريخ، وقيمة معرفية استشكالية يتبنّاها التحليل.

ثمّ يمضي النصّ في هذه التناظرية بإحداث المقايسة بين صور التديّن المختلفة، رافعا درجة تراتبية التديّن إلى الالتزام، وتراكمية التعلّم إلى الفقه ليبيّن منها مدى الانسحاب الذي يحقّقه مقوّم العائلة على المقوّمات الأخرى في هذا المجتمع.

جاءت المقايسة الأولى على مستوى قاض فقيه من أهل المنطقة، لتدلّل على درجة العلم والفهم لمتطلّبات التديّن في النفس والمجتمع، وفي الثقافة والحكم، فقال: "دخلت يوما على القاضي بإيوالاتن بعد إذنه في الدخول، فوجدت عنده امرأة صغيرة السنّ بديعة الحسن. فلمّا رأيتها ارتبت وأردتّ الرجوع، فضحكت منّي ولم يدركها خجل، وقال لي القاضي: لم ترجع؟ إنّها صاحبتي. فعجبت من شأنهما، فإنّه من الفقهاء الحجّاج"[46].

وجاءت المقايسة الثانية بتغيير الموقعية في الصحبة إلاّ أنّها دفعت الخبرة من المشاهدة والثقافة إلى التناظرية، وحقّقت الإشكال على مستوى النصّ قائما في استنكار شديد. وألمحت إلى دور الرحلة، واختبار الثقافات في المكوّن السوسيوثقافي. كما ألمحت إلى إمكانية اعتبار تلاقح الثقافات مقوّما فيه.

قال: "دخلت يوما على أبي محمّد بن يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته، فوجدته قاعدا على بساط، وفي وسط داره سرير مظلّل عليه امرأة معها رجل قاعد، وهما يتحدّثان.

فقلت له: ما هذه المرأة؟. فقال: هي زوجتي. فقلت: وما الرجل الذي معها؟. فقال: هو صاحبها. فقلت: أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة، لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم. فعجبت من رعونته وانصرفت عنه، فلم أعد إليه بعدها، واستدعاني مرّات فلم أجبه"[47].

خاتمة:

هاتان صورتان للمكوّن السوسيوثقافي لإنسان الصحراء تبيّنهما نصوص الرحلة البطّوطية، استخلصناهما خبرا تاريخيا نوثّق به الأحداث، ونرسم به الوقائع. كما أثرناهما ركيزتين للتحليل الانثروبولوجي والسوسيولوجي لمظاهر مجتمعية على مستوى الثقافة، وعلى مستوى الممارسة. ونصوص الرحلة مختبر صحيح الإسناد، واسع الميدان للنظر والتحليل، الذين تنشدانهما الدراسات الاجتماعية والإنسانية.

إنّ المحمول في نصوص الرحلة مشاهدات خاصّة، تحمل شهادات عامّة على وقائع وأحداث، لم تتمكّن الكتابات التاريخية أن تصل إليها، بعائق الجغرافيا، وبعائق انعدام حركة التوثيق. فالرحلة فكّ للنص التوثيقي بالمشاهدة والمعاينة، اللتين تتبنّاهما الدراسات الاجتماعية والإنسانية مصدرا للخبر عن الحادثة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الأنصاري عبده الفيلالي: ابن بطّوطة والنظام العالمي القديم، المناهل، ع 60، الرباط يناير 2000.

2- ابن بطّوطة محمّد بن عبد الله اللواتي: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط 02، مؤسّسة الرسالة، بيروت 1402هـ/ 1982م.

3- بنجلالي عبد المجيد: مدينة فاس في كتابات الآخر(رحلات عبد الله الجرّاري، الوجه الآخر للحياة العلمية والاجتماعية)، ضمن ندوة فاس في تاريخ المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، فاس 2008.

4- التازي عبد الهادي: الرحلة كمصدر لتاريخ العلاقات الدولية، المناهل، ع 60، الرباط يناير 2000.

5- التنلاني عبد الرحمان بن إدريس: رحلة للشيخ سيدي عبد الرحمان بن إدريس التنلاني، مخطوط، خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلباليبكوسام، توات.

6- جوردا بيير: الرحلة إلى الشرق، ترجمة مي عبد الكريم علي بدر، ط 01، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2000.

7- حسين حسني محمود: أدب الرحلة عند العرب، ط 02، دار الأندلس، بيروت 1403هـ/ 1983م.

8- خصباك شاكر: ابن بطّوطة ورحلته، د ط، دار الآداب، بيروت، د ت.

9- الخفّاف عبد العلي والمومني محمّد أحمد عقلة: دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي، د ط، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن 1420هـ/ 2000م.

10- الدبّاغ محمّد بن عبد العزيز: جولة مع ابن بطّوطة في رحلته، المناهل، ع 59، الرباط 1999.

11- زياده نقولا: الجغرافية والرحلات عند العرب، د ط، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1987.

12- سعد الله أبو القاسم: تجارب في الأدب والرحلة، د ط، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.

13- الشامي صلاح الدين علي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، د ط، المعارف، الإسكندرية 1999.

14- الشكري أحمد: رحلة ابن بطّوطة إلى بلاد السودان، المناهل، ع 59، الرباط 1999.

15- العربي إسماعيل: تاريخ الرحلة والاستكشاف في البرّ والبحر، د ط، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

16- ابن فضلان أحمد: رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهّان، د ط، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، د ت.

17- فهيم حسين محمّد: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت 1989.

18- القلصادي أبو الحسن علي (ت891هـ/ 1486م): رحلة القلصادي، د ط، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1985.

19- كانغيلام جورج: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة محمّد بن ساسي، ط 01، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007.

20- محمّد حسن زكي: الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى: د ط، دار الرائد العربي، بيروت 1401هـ/ 1981م.

21- ابن محمذن محمّدو: "الرحلات الاستكشافية الفرنسية في الصحراء الكبرى (الدوافع و العراقيل)"، مجلّة العلوم الإنسانية، ع 20، قسنطينة 2003.

22- المسعودي حمّادي: الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطّوطة، د ط، ، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس 2001.

23- مفتاح محمّد: المعرفة والحقيقة والدلالة في رحلة ابن بطّوطة، المناهل، ع 60، الرباط يناير 2000.

24-André (Miquel): «Rome chez les géographes arabes», in: Comptes-rendus des séances de l'Académie des inscriptions et belles-lettres, Paris 1975, Année 18, No 02.

25-Belhachemi (Faouzia): «Nouvelle interprétation du processus de peuplement dans le massif du Hoggar à partir des géographes arabes», in: Revue de géographie alpine, Grenoble, France 1991, T 79, No 01.

26-Broc (Numa): « Voyages et géographie » , in : Revue d'histoire des sciences et de leurs applications, Paris 1969, V 22, No 02.

27-Butor (Michel): «Le voyage et récriture", in: Romantisme, Paris 1972, No 04.

28-Chelhod (Joseph): «Ibn Battuta, ethnologue», in : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, Paris 1978, No 25.

29-Gilles (Bertrand): «En marge du voyage des élites dans l'Italie des lumières. Du peuple regardé au peuple voyageur», in: Mélanges de l'Ecole française de Rome. Italie et Méditerranée, Paris 1999, V 111, No 02.

30-Henri (Dubois): «Un voyage princier au XIVe siècle(1344) », in: Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Aubazine, France 1996, No 26.

31-Ishida (Hidetaka): «Régimes narratifs et récits de voyage au Japon(1890-1930). Le voyage comme "leçon des choses" et de la modernisation», in: Genèses, Paris 1999, No 35.

32-Laronde (André): «Quelques sites de la Libye antique et Ibn Battuta», in : Comptes-rendus des séances de l'Académie des inscriptions et belles-lettres, Paris 2003, No 01.

33-Lenglet (Dufresnoy Nicolas): Méthode pour étudier la géographie, Tilliard Libraire, Paris, T 01.

34-Lewicki (Fred. T): "A Propos du Nom De l'Oasis de Koufra Chez Les Géographes Arabes du XIe et du XIIe Siècle», in:The Journal of AfricanHistory, Cambridge 1965, V 06, No 03.

35-Mazzoli-Guintard (Christine): «Le royaume de Grenade au milieu du XIVe siècle: quelques données sur les formes de peuplement à travers le voyage d'Ibn

Battuta», in: Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Aubazine, France 1996, No 26.

36-Micheau (Françoise): «Ibn Battuta à Constantinople la grande», in : Médiévales, Paris 1987, No 12.

37-Teyssot (Josiane): «Voyages et pérégrinations d'Auvergnats pendant la guerre de Cent Ans», in: Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Aubazine, France 1996, No 26.

38-Vieme (Simon): « Le voyage initiatique », in: Romantisme, Paris 1972, No 04.

39-Yerasimos (Stéphane): «Explorateurs de la modernité. Les ambassadeurs ottomans en Europe», in: Genèses, Paris 1999, No 35.

الهوامش:

(1) تختلف كتب الرحلة عن كتب الجغرافيا من حيث منهج تسجيل الوقائع، وصور المشاهدات.أنظر:نقولا زياده: الجغرافية والرحلات عند العرب، د ط، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1987، ص 16.

(2) أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، د ط، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص 203.

(3) عبد العلي الخفّاف ومحمّد أحمد عقلة المومني: دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي، د ط، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن 1420هـ/ 2000م، ص 41.

(4) محمّدو بن محمذن: "الرحلات الاستكشافية الفرنسية في الصحراء الكبرى (الدوافع والعراقيل)"، مجلّة العلوم الإنسانية، ع 20، قسنطينة 2003، ص 157.

(5) Henri (Dubois): «Un voyage princier au XIVe siècle(1344) », in: Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Aubazine, France 1996, No 26,p 80.

(6) Josiane (Teyssot): «Voyages et pérégrinations d'Auvergnats pendant la guerre de Cent Ans», in: Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Aubazine, France 1996, No 26, p 63.

(7) (Bertrand (Gilles): «En marge du voyage des élites dans l'Italie des lumières. Du peuple regardé au peuple voyageur», in: Mélanges de l'Ecole française de Rome. Italie et Méditerranée, Paris 1999, V 111, No 02, p 850.

وحسين محمّد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت 1989، صفحات 129- 144.

(8) إسماعيل العربي: تاريخ الرحلة والاستكشاف في البرّ والبحر، د ط، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 06.

(9) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ط 02، دار الأندلس، بيروت 1403هـ/ 1983م، ص 07.

(10)) Miquel (André): «Rome chez les géographes arabes», in: Comptes-rendus des séances de l'Académie des inscriptions et belles-lettres, Paris 1975, Année 18, No 02, p 281.

[11] بعضها استعرض ظواهر اجتماعية، وأخرى طبيعية، كان لها الخصوصية والأثر في حياة الناس والحواضر، أنظر:عبد المجيد بنجلالي: مدينة فاس في كتابات الآخر(رحلات عبد الله الجرّاري، الوجه الآخر للحياة العلمية والاجتماعية)، ضمن ندوة فاس في تاريخ المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، فاس 2008، ج 02، ص 117.

[12])Christine(Mazzoli-Guintard): «Le royaume de Grenade au milieu du XIVe siècle: quelques données sur les formes de peuplement à travers le voyage d'Ibn Battuta», in: Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, Aubazine, France 1996, No 26, p 145.

[13]Numa (Broc) : « Voyages et géographie» , in : Revue d'histoire des sciences et de leurs applications, Paris 1969, V 22, No 02, p 141.

[14] عبد الرحمان بن إدريس التلاني: رحلة للشيخ سيدي عبد الرحمان بن إدريس التلاني، مخطوط، خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلباليبكوسام، توات، ص 01.

[15]) Fred (T. Lewicki): "A Propos du Nom De l'Oasis de Koufra Chez Les Géographes Arabes du XIe et du XIIe Siècle», in:The Journal of AfricanHistory, Cambridge 1965, V 06, No 03, p 295.

[16] أنظر في هذه المعاني:

Faouzia (Belhachemi): «Nouvelle interprétation du processus de peuplement dans le massif du Hoggar à partir des géographes arabes», in: Revue de géographie alpine, Grenoble, France 1991, T 79, No 01, p 144.

[17] بعض الرحلات تأخذ هذا المعنى كلّيا. أنظر:أحمد بن فضلان: رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهّان، د ط، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، د ت.

[18] زكي محمّد حسن: الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى: د ط، دار الرائد العربي، بيروت 1401هـ/ 1981م، ص 179.

[19] صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، د ط، المعارف، الإسكندرية 1999، ص 149.

[20] كانت الرحلة مستند كثير من مؤلّفي التراجم، والطبقات. أنظر:أبو الحسن علي القلصادي(ت 891هـ/ 1486م): رحلة القلصادي، د ط، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1985، صفحات 70- 73.

[21]مقصورة على الرحّال نفسه، أي صورة لانفعاله بالمشاهدات، وتوقيعه لها كما تمثّلها.

[22]Stéphane (Yerasimos): «Explorateurs de la modernité. Les ambassadeurs ottomans en Europe», in: Genèses, Paris 1999, No 35, p 66.

[23]Nicolas (LengletDufresnoy), Méthode pour étudier la géographie, Tilliard Libraire, Paris, T 01, p 127.

[24]أنظر في بعض هذا المعنى:

Hidetaka (Ishida): «Régimes narratifs et récits de voyage au Japon(1890-1930). Le voyage comme "leçon des choses" et de la modernisation», in: Genèses, Paris 1999, No 35, p 89.

[25]Michel (Butor): «Le voyage et récriture", in: Romantisme, Paris 1972, No 04, p 04.

[26]Simon (Vieme): « Le voyage initiatique », in: Romantisme, Paris 1972, No 04, p 38.

[27] بيير جوردا: الرحلة إلى الشرق، ترجمة مي عبد الكريم علي بدر، ط 01، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2000، صفحات 19- 22.

(28)Christine (Mazzoli-Guintard) op,cit, p 147.

(29) André (Laronde) : «Quelques sites de la Libye antique et Ibn Battuta», in : Comptes-rendus des séances de l'Académie des inscriptions et belles-lettres, Paris 2003, No 01, p 209.

(30) شاكر خصباك: ابن بطّوطة ورحلته، د ط، دار الآداب، بيروت، د ت، ص 13.

(31)إلى هذا الاعتبار الابستمولوجي في مقاربة نصّ الرحلة ذهب بعض الباحثين الذين كوّنوا المعرفة بالتساؤل الحاصل من النص كمعطى للإشكال وليس معطى للحقيقة النهائية. أنظر: عبده الفيلالي الأنصاري: ابن بطّوطة والنظام العالمي القديم، المناهل، ع 60، الرباط يناير 2000، ص 143.

(32) Françoise (Micheau) : «Ibn Battuta à Constantinople la grande», in : Médiévales, Paris 1987, No 12, p 56.

(33) لابدّ من التأكيد على مجال الدراسة في مثل هذه النصوص، وأنّ مراعاة التخصّص فيها شرط في تمثّل نتائجها، وأنّ القراءة الأدبية في نصّ الرحلة بأبعاده المنهجية غير القراءة الانثروبولوجيةوالسوسيولوجية، وأنّ المقصد في البنائية المعرفية معلّق بمنهج البحث في كلّ قراءة. أنظر: حمّادي المسعودي: الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطّوطة، د ط، ، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس 2001، صفحات 30- 44.

(34) عبد الهادي التازي: الرحلة كمصدر لتاريخ العلاقات الدولية، المناهل، ع 60، الرباط يناير 2000، ص 48.

(35)هناك دراسات قيّمة تطرح المنظور الابستمولوجي في إنشاء هذه الرؤى. أنظر:محمّد مفتاح: المعرفة والحقيقة والدلالة في رحلة ابن بطّوطة، المناهل، ع 60، الرباط يناير 2000، صفحات 119- 142.

(36)محمّد بن عبد العزيز الدبّاغ: جولة مع ابن بطّوطة في رحلته، المناهل، ع 59، الرباط 1999، ص 125.

(37) أحمد الشكري: رحلة ابن بطّوطة إلى بلاد السودان، المناهل، ع 59، الرباط 1999، ص 146.

(38) محمّد بن عبد الله اللواتي المعروف بابن بطّوطة: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط 02، مؤسّسة الرسالة، بيروت 1402هـ/ 1982م، ج 01، ص 211.

(39)) Joseph (Chelhod) : «Ibn Battuta, ethnologue», in : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, Paris 1978, No 25, p 11.

(40)ابن بطّوطة، الرحلة، ج 02، ص 774.

(41) جورج كانغيلام: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة محمّد بن ساسي، ط 01، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007، ص 489.

(42) في إطار إنشائية المعرفة من خلال نصّ كنصّ ابن بطّوطة أنبّه إلى المقال الرائع لمحمّد مفتاح السابق الذكر فلم أعثر على بنائية مشابهة له، ولقد ضمّنه من ابن بطّوطة، ومن نفسه، ومن توجّهات المعرفة عامّة، بدءا من المفهوم.

(43) المصطلح لمحمّد مفتاح في مقاله المذكور، ص 121.

(44) ابن بطّوطة، الرحلة، ج 02، ص 777.

(45) أنظر على سبيل المثال مرويات ابن فضلان عن سكّان الشمال.

(46)ابن بطّوطة، الرحلة، ج 02، ص 777.

(47) نفسه.